

التحولات الثقافية والفكرية بحاضرة أم عسكر أواخر العهد العثماني

*Cultural and intellectual transformations in the metropolis of Umm**Askar at the end of the Ottoman era*بلعربي خالدي^{1*} ، بن شرقي حليبي² ، حليبي مصطفى³¹ جامعة الشلف(الجزائر) khalidibelarabi02@gmail.com² جامعة الشلف(الجزائر)، halilib79@yahoo.fr³المركز الجامعي النعامية (الجزائر).halimi_121@hotmail.fr

تاريخ النشر: 2022 / 06 / 14

تاريخ القبول: 2022 / 06 / 02

تاريخ الإستلام: 2022 / 01 / 14

ملخص:

تطرقنا في هذه الدراسة المتواضعة إلى حاضرة أم عسكر (معسكر حالياً) على مدار نصف قرن ونيف من تاريخها الحديث [1779 / 1835]، حيث عرفت أحداثاً جساماً غيرت مجرى تاريخها، فقد استمرت إحدى وتسعين سنة عاصمة للبايليك الغربي وعاشت أزهى فتراتها في عهد الباي محمد الكبير الذي خصها بمنجزات عمرانية وثقافية لم تشهدها من قبل، بل جعل منها قاعدة خلفية لتحرير وهران من قبضة الاسبان سنة 1792 لتنتقل فيما بعد منها عاصمة بايليك الغرب إلى وهران، فما لبثت أن غدت أراضيها مسرحاً لثورات وانتفاضات دينية استهدفت النظام العثماني الذي ساءت أحواله واشتدت قبضته الحديدية فعانت منه الساكنة، فكانت ثورة الطريقة الدرقاوية [1802 / 1805] باكورة تلك الثورات وما ترتب عنها من نجاحات واخفاقات، ثم عاشت أحداث انتفاضة الطريقة التجانية [1827] التي قادها الشيخ محمد الكبير التجاني حين اكتسح منطقة غريس رفقة أتباعه، وقد ألفت تلك الثورات بظلالها على علاقة ساكنة أم عسكر بالسلطة التركية ، حيث ترتب عنها حملة واسعة من الاعتقالات والاعدامات طالت شيوخ الطرق والعلماء بالإقليم الغربي للجزائر على يد الباي حسن بن موسى. بعد احتلال الفرنسي لوهان سنة 1831 استعادت أم عسكر مجدها من جديد على يد الأمير عبد القادر حين جعل منها عاصمة للدولة الجزائرية الحديثة وقلعة للمقاومة الوطنية المسلحة.

الكلمات المفتاحية: أم عسكر، بايليك الغرب، النظام التركي، الباي محمد الكبير، الاسبان، الثورات .

Abstract:

In this modest study, we touched on the metropolis of Umm Askar (Mascara) over half a century and a half of its modern history [1779 / 1835], where it knew huge events that changed the course of its history. The great who singled it out with urban and cultural achievements that it had not witnessed before, but made it a background base for the liberation of Oran from the grip of the Spaniards in 1792, to move later from it, the capital of Bailek, the West to Oran. Soon its lands became the scene of revolutions and religious uprisings targeting the Ottoman regime, whose situation worsened and its iron grip intensified, and the inhabitants suffered from it. Which was led by Sheikh Muhammad al-Kabir al-Tijani when he swept the region of Grace with his followers, and these revolutions cast a shadow over the relationship of Umm Askar static with the Turkish authority, as it resulted in a wide campaign of arrests and executions that affected the sheikhs of roads and scholars in the western region of Algeria at the hands of the Bey Hassan bin Musa.

After the French occupation of Oran in 1831, Umm Askar regained its glory at the hands of Prince Abdelkader when he made it the capital of the modern Algerian state and a fortress of the armed national resistance.

Keywords: umm Askar, Baylik of the West, the Turkish regime, Bey Muhammedelkbir, Spain, the revolutions.

1. مقدمة:

عرفت أم عسكر على مدار نصف قرن ونيف من تاريخها الحديث [1835/1779] أحداثاً جساماً غيرت مجرى تاريخها، فقد استمرت إحدى وتسعين سنة عاصمةً للبايليك الغربي، وعاشت أزهى عصورها في عهد الباي محمد الكبير الذي خصها بمنجزات عمرانية وثقافية لم تشهدها من قبل في عهد من سبقوه، بل جعل منها قاعدة خلفية لتحرير وهران من قبضة الاسبان سنة [1792]، حينها فقدت مركز القيادة وانتقلت منها العاصمة إلى وهران، ثم ما لبثت أن غدت أراضيها مسرحاً لثورات وانتفاضات دينية استهدفت الاطاحة بنظام الحكم التركي الذي ساءت أحواله واشتدت قبضته الحديدية فعانت منه الساكنة. فكانت ثورة الطريقة الدرقاوية [1802/1805] باكورة تلك الثورات وما ترتب عنها من نجاحات واخفاقات، ثم عاشت أحداث انتفاضة الطريقة التجانية [1827] التي قادها الشيخ محمد الكبير التجاني حين اكتسح منطقة غريس رفقة أتباعه، لكنه لقي حتفه في عواجة إحدى ضواحي أم عسكر وانتكست حركته، وقد ألفت تلك الثورات بظلالها على علاقة ساكنة أم عسكر بالسلطة التركية. حيث ترتب عنها حملة واسعة من الاعتقالات والاعدامات طالت شيوخ الطرق والعلماء بالإقليم الغربي للجزائر على يد الباي حسن بن موسى.

بعد احتلال وهران سنة 1831 استعادت أم عسكر مجدها من جديد على يد الامير عبد القادر حين جعل منها عاصمة للدولة الجزائرية الحديثة وقلعة للمقاومة الوطنية المسلحة، ومن أجل معالجة علمية لهذه العجالة وجب طرح الاشكالية التالية: ماهي التحولات التي شهدتها أم عسكر في غضون نصف قرن من تاريخها الحديث؟ وماهي المتغيرات الجديدة التي طرأت على الساحة الثقافية والفكرية في ظل حكم الباي محمد الكبير عندما كانت أم عسكر حاضرة الامارة بالإيالة الغربية؟ هذا وتنضوي تحت هذه الاشكالية مجموعة من التساؤلات الفرعية، والتي تزيد الموضوع ايضاحاً وقد جاءت على النحو التالي:

ما هي مكاسب أم عسكر على مدار قرن وربع القرن من الريادة السياسية والادارية والعسكرية والعلمية؟

تري ماذا خسرت أم عسكر بتحويل مقر العاصمة إلى وهران سنة 1792 ؟

أولاً: عواصم بايليك الغرب واستراتيجية التحول من الداخل نحو الساحل:

في الوقت الذي بقيت فيه عاصمة البايليك الشرقي قسنطينة وعاصمة بايليكالتطري المديية على حالهما منذ التقسيم الذي أقره العثمانيون غداة حلولهم بالجزائر، نجد أن عاصمة بايليك الغرب ظلت تتحول من مكان لأخر على مدار أكثر من ثلاثة قرون وهي فترة الحكم العثماني في بلادنا، وهذا تبعاً للتهديدات الاسبانية التي كانت تخيم على الساحل المتوسطي الجزائري لاسيما القسم الاوسط والغربي منه، إذ في غضون منتصف القرن السادس عشر اقتضت الظروف من حكام بني عثمان في الجزائر أن يتخذوا مازونة عاصمة للبايليك الغربي لكونها تقع في أحضان جبال الظهرة وهو موقع محصن نسبياً بالرغم من كونه غير بعيد البحر المتوسط.

خلال سنة 1098هـ الموافق لـ 1686م تولى مصطفى بوشلاغم حكم بايليك الغرب وكان من بين أهم أعماله نقل مقر عاصمة البايليك من مازونة إلى أم عسكر سنة 1205هـ/1791م (المزاري، 2009). ولا نعرف ما هي الدوافع الحقيقية الكامنة وراء هذا التغيير في مقر العاصمة من مازونة إلى أم عسكر، هل ذلك يعود إلى العامل الأمني بحيث صار بايليك الغرب أكثر أمناً من ذي قبل من التهديدات الاسبانية (هابنسترايت،

2008) والاطماع المغربية وعليه تم نقل عاصمته من مرتفعات الظهرة الوعرة إلى سهل أم عسكر الفسيحة؟ أم أن الأقلية التركية والطائفة الاندلسية والعناصر الكرغلية قد ضاقت ذرعا بالمكان وكنت ترغب في الاقتراب من السواحل حيث تتركز المصالح الاقتصادية، وتتواجد معظم المجموعة الحضرية؟ أم ذلك يرجع إلى رغبة حكام الجزائر العثمانية إلى تقريب مقر عاصمة البايليك من الثغور ومناطق التماس التي هي في قبضة المحتل الإسباني لتقديم الدعم المادي والمعنوي خلال فترات المواجهة؟

لعل كل الاعتبارات السالفة الذكر وغيرها هي التي دفعت بالسلطات التركية على تغيير مقر عاصمة البايليك من المرتفع إلى السهل، ومن النطاق الداخلي نسبيا إلى النطاق المحاذي للساحل، ولذا فإن مدينة أم عسكر التي وقع الاختيار والواقعة جنوب شرق مدينة وهران ولا يفصلها عنها سوى 90 كلم، تشكل قاعدة الوطن الراشدي الذي يحده شرقا جبل المناور، ومن الغرب جبل كرسوط، وشمالا القلعة الراشدية، ومن الناحية الجنوبية واد البنيان (بن بكار، 1961) كما أنها تُعد إحدى المدن الهامة بالناحية الغربية للجزائر من حيث العمران البشري، فعلاوة على موقعها الاستراتيجي المتحصن ضمن سلسلة جبال بني شقران فإن ثقلها التاريخي قد أهلها لكي تغدو عاصمة للبايليك، فقد كانت فيما مضى مقرا للحامية الرومانية كما ظلت لفترة طويلة ضمن خطوط الدفاع المتقدمة والمعروفة "بالليمس" الروماني واشتهرت باسم "كاسترا نونفا" أي القلعة الجديدة.

في غضون القرن السادس الهجري الموافق للثاني عشر الميلادي عند استلام الموحدون زمام الحكم ببلاد المغرب الاسلامي جعلوا منها قلعة عسكرية كذلك، وفي ظل حكم بني زيان شكلت خط دفاعي متقدم لصد غرات قبائل مغراوة وبني توجين. والظاهر أن تلك الأدوار الطلائعية التي مثلتها أم عسكر عبر مراحل تاريخها قد مكنتها من أن تجسد دورا آخر وهو مقرا لعاصمة للبايليك في العصر الحديث، حيث وقع اختيارها من بين مجموعة من المدن العريقة في بايليك الغرب.

لا جرم أن عواصم البايليك الغربي خلال العصر الحديث وفي ظل الحكم التركي قد اتخذت الصبغة الحربية نظرا للتحرش الإسباني الذي ما فتئ يهدد المدن الساحلية للجزائر عامة، وعلى وجه الخصوص المدن الغربية، فضلا عن توتر العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب، والانتفاضات والثورات التي عرفها الاقليم خلال أواخر العهد العثماني.(سعيدوني، 1985)

تبوأت حاضرة أم عسكر خلال أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر مكانة متميزة بين الحواضر الجزائرية فقد أصبحت مركز إشعاع علمي ومنبر الفقهاء والعلماء، وملجأ المريدين والطلبة، ومقصد الأدباء والشعراء، وقد ساعدها في ذلك اهتمامات الباي محمد الكبير التعليمية الثقافية التي تضافرت مع جهود أعيان البلد في النهوض بالتعليم وعلمهم يصدق قول أحمد الشريف زهار نقيب الأشراف: "... وكان أهل هذه المدينة يعني (أم العساكر) علماء عاملين وأولياء صالحين، وهم أهل فصاحة، وسنة وورع" (الزهار، 1980)

إن اتخاذ كل من مازونة وأم عسكر عاصمتان للبايليك الغربي في فترات معينة خلال العصر الحديث من طرف سلطة بني عثمان في الجزائر، ليس هو الذي أعطى دفعا قويا للحراك الثقافي والتعليمي فحسب، بل هناك عدة اعتبارات أخرى منها وجود عائلات لها تطلع كبير بقضايا التعليم والعناية بكتاب الله، فضلا عن حرص بعض الأولياء من أجل تعليم أولادهم، في وقت الذي لم يكن للسلطة التركية أي اهتمام بمسألة التعليم ورجاله.

ثانياً: الأجواء الثقافية والعلمية خلال أواخر العهد العثماني بعاصمة البايليك:

قبل التعرض لواقع الحياة الثقافية والعلمية في بايليك الغرب أواخر العهد العثماني يجدر بنا أن ندع المؤرخ أبا رأس الناصر الذي عايش تلك الحقبة ليعطينا وصفاً دقيقاً عن الأجواء الثقافية التي كانت تمر بها البلاد آنذاك حيث قال: "... إني في زمن عطلت فيه مشاهد العلم ومعاهده وسُدت مصادره وموارده خلت أثاره ومراسمه، وعفت أطلاله ومعامله لاسيما فن التاريخ والادب وأخبار الأوائل والنسب قد طويت في زوايا الهجران، ونسجت عليها عناكب النسيان، وأشرفت شمسها على الأفول، واستوطن فحولها زوايا الخمول يتلهفون على اندراس العلم والفضائل، ويتأسفون على انتكاس أحوال الأذكياء والأفاضل، وإلى الله المشتكى من دهر إذا أساء صر على إساءته..." (سعد الله، 2007).

لسنا نعلم متى كتب أبو راس الناصر هذا النص بالتحديد، والظاهر أن أبو راس الناصر في توصيفه للوضع الثقافي يتفق إلى حد ما مع كاتب الباي أحمد بن سحنون الراشدي الذي يشخص الوضع التعليمي قبل وبعد تولي الباي محمد الكبير مقاليد الأمور بباليك الغرب "... واشتد الحرص على العلم من بعد أن كاد يُترك اشتغالا بالتجارة لقلّة جدواه..." (الراشدي، 2013).

وإذا كان الكاتب أحمد بن سحنون الراشدي يستثني المرحلة التي حكم فيها الباي محمد الكبير، فإن أبا راس الناصر لم يستثني بتشخيصه المتقدم أنفاً أي مرحلة من المراحل التي عاشها خلال العهد العثماني.

كما أن أبا رأس الناصر لم يوضح الأسباب التي أدت إلى هذه الوضعية، ولم يشر إلى المسؤول عنها، أما قوله إني في زمن عطلت فيه مشاهد العلم فهل يقصد بذلك بداية مشواره التعليمي؟ حيث أقل نجم تلمسان وهاجرهما العلماء، وتصدر المشهد الثقافي عندئذ بالناحية الغربية من الجزائر زاوية مجاجة والمدرسة الفقهية بمازونة اللتين صارتا محج الطلبة والشيوخ، وأبوراس الناصر لم يكن غريباً على هذه الأجواء، والامكان، أم أنه يقصد بذلك مشواره العملي في حقل التعليم عندما انقطع للتعليم بين أرياف وحاضرة معسكر ستاً وثلاثين سنة لم يتوقف يوماً واحداً حتى تسمع الناس به وذاع صيته في الأفاق، واجتمع عنده ما يزيد عن سبعمائة وثمانون طالباً، وهو القائل عن نفسه: "... حتى صارت حضرتي في العلم تُذكر في الأفاق وتنسك دروس مصر والشام وتونس والعراق..." كما أشاد بصنيع باياتبايليك الغرب لاهتمامهم بما يقوم به حيث قال: "... ثم إن البايات أمراء بلادنا لما علموا كثرة الطلبة وازدحامهم عندي عملوا لي كرسيًا فاستعنت به على الدرس غاية الاستعانة..." (الناصر، 1990).

لقد عاصر أبو راس الناصر فترة حكم الباي محمد الكبير التي دامت عشرين سنة 1779 م/ 1799، والتي ميزها اهتمامات الباي المنقطعة النظير بالجوانب التعليمية والمنجزات العمرانية ذات الطابع الديني، كما عايش فترة اليقظة العلمية والأدبية التي كانت تشهدها أم عسكر والتي توجت بظهور عده أعمال أدبية وتاريخية تُخلد إنجازات الباي محمد الكبير لاسيما بعد استرجاعه وهران من قبضة الإسبان، وقد سطرها كاتبه أحمد بن سحنون الراشدي في تأليف الموسوم ب الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، وكتاب الرحلة القمرية لبن زرقة الدحاوي، نهبك عن العلماء الذين عاصروهم أبو راس الناصر بالجزائر وأخذ عنهم أو أخذوا عنه.

إذن في الوقت الذي يتحدث فيه معاصرو أبا راس الناصر عن انتعاش الحياة العلمية وانتشار التعليم في الحواضر والبوادي لاسيما فترة حكم الباي محمد الكبير الذي كان يغدق على العلماء بعطاياه، بل أن أبا

راس الناصر نفسه كان من جملة المستفيدين فقد مسته تلك الهبات عندما عُين في وظيف ثابت، وحاز هبة مالية قدرت بمائة محبوب، يطلع علينا بصورة مغايرة تماما لما اتفق عليه ممن عاصروه .

إنالتشخيص الذي تقدم به أبو رأس الناصر للوضعية الثقافية والعلمية في كتابه عجائب الاسفار ولطائف الأخبار يبدو أنه يحمل كثير من المبالغة ولا يعطينا صورة دقيقة عن أوضاع البلاد الثقافية آنذاك ترى لماذا؟ هل هو بصدد المقارنة بين العهد الاندلسي الذي شهد انتشار واسع للعلوم، والفترة الحديثة التي شاهدهت تراجعاً كبيراً في المستوى الثقافي والعلمي واختزال المشهد العلمي في درس يُحفظ أو جملة تُعرب أو كتاب يُشرح وهذا ما أشار إليه الكاتب أحمد أمين: "... فاعلم فيما كان كتاباً دينياً يُقرأ، أو جملة تُعرب، أو متن يُحفظ، أو شرح على متن، أو حاشية على شرح، أما علوم الدنيا فلا شيء منها إلا حساب بسيط يستعان به على معرفة الموارث، أو قبس من تلك يستدل به على مواقيت الصلاة..." (سعيدوني، 2012) أم أنه كان يقارن الوضعية الجزائرية ببعض البلدان العربية التي زارها؟ والتي ظلت فيها الثقافة تستمد مقوماتها من تراث الحضارة العربية الإسلامية وتعوض عليه بالنواجد من خلال تكرار نصوص وأحكام العلوم الشرعية وما يتصل بها من معارف لغوية، ومن هنا نستطيع القول أن الحياة الفكرية في ظل الحكم العثماني كان روادها في سعي حثيث من أجل المحافظة على ما كان موجوداً وعدم التطلع للتجديد سواء في محتوى المعارف، أو في طرق تمثيلها أو وسائل الحصول عليها.

أما فيما يخص العلوم التي أتى على ذكرها ونقتصر منها على التاريخ، فقد حفل القرن 18 و19 الميلاديين وهي الحقبة التي عاش فيها أبو راس الناصر، تميزت بعدة تأليف تاريخية بيد أن المشتغلين بالكتابة التاريخية خلال العهد العثماني قد اقتصرنا على التواريخ المحلية، والتراجم، والرحلات، ولم يتصدى واحداً منه لكتابة تاريخ الجزائر بشكل عام لكون الكتاب كانوا غارقين في المحلية، فحين غابت النظرة الشمولية للجزائر كما يبدو أن المفهوم القصصي للتاريخ هو الذي كان شائعاً، (سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي، 2000) وبالرغم من أن ابن خلدون قد وضع المنهج وكان معروفاً لدى كثير من الكتاب الجزائريين فإنهم لم يوظفوا ما جاء به ابن خلدون في المقدمة حول الكتابة التاريخية.

ثالثاً: العوامل المساعدة على بعث الحركة العلمية في حاضرة بايليك الغرب أم عسكري:

تظافت مجموعة من العوامل في بايليك الغرب الجزائري أعطت نفساً جديداً للحركة التعليمية والعلمية بأم عسكري نوجزها في مايلي:

1 - جهود الباي محمد الكبير في النهوض بالحياة العلمية والثقافية:

منذ أن وقع الاختيار على أم عسكري لتكون عاصمة للبايليك الغربي على يد الباي مصطفى بوشلاغم سنة 1701 صارت موثلاً للطلبة، ووجهة علماء الجزائر والاقطار المجاورة، وازداد نشاطها العلمي والادبي وشهدت تحولات ثقافية هامة، لاسيما في عهد الباي محمد الكبير 1779/ 1792 الذي دشن حياته الادارية والسياسية كقائد لقبيلة فليته، إذ أجم نفوذ القبائل الخارجة عن الطاعة، والتي كانت تغتنم فرصة ارتخاء حبل الأمن وسيادة الفوضى لتمارس هوياتها المفضلة كاللصوصية وقطع الطرقات وقد وجد فيها المحتل الإسباني ضالته من أجل بسط نفوذه إلى أجل غير مسمى.(المشرفي، 2016).

حين عُين الباي محمد الكبير سنة 1193 هـ / 1779 م على رأس البايليك الغربي سيرة حملة عسكرية إلى الأغواط سنة 1785 م من أجل إخضاع القبائل الممتنعة هناك بعين ماضي حيث مقر الزاوية التجانية (سعيدوني ن، 2013)، وبالرغم من انشغاله بتوطيد دعائم الحكم العثماني في الناحية الغربية من الجزائر، وجباية الضرائب، لم يتوان عن الاهتمام بقطاع استراتيجي أهمله من سبقوه ألا وهو قطاع التعليم فعكف على بناء المدارس والجوامع كي يكسب ود العلماء الذين لهم سلطانا على شرائح واسعة من المجتمع وكان متفهما لحاجيات العلماء والطلبة حينما سخر جزء من امكانيات البايليك لتحقيق تلك المهمة، فقد أوكل بعض المناصب السامية في الدولة إلى الشريحة المثقفة اعتنى بالناحية الثقافية والتعليمية بغية اعداد العلماء والطلبة للمشاركة في عملية التحرير التي كانت من بين أهم مشاريعه ، كما عمد إلى بناء الجوامع والمساجد وتأسيس المدارس العلمية، وبناء القباب والاضرحة.

لكن بالرغم من المجهودات المبذولة والمنقطة النظير في الحقل الثقافي، لم نعرف عن الباي أنه قد أعطى أوامر بتحديث المنظومة التعليمية التي ظلت تعتمد التعليم الديني واللغوي بل الأكثر من ذلك غارقة في التقليد وغير معتنيه بالتجديد، أم أن وضع التعليم في العالم الاسلامي من مغربه إلى مشرقه، وعدم الرغبة إلى التطلع إلى ما كان يجري في الغرب من تطور علمي هو ما جعل الباي يكتفي بالموجود، كما أن الاقليم الغربي من الجزائر لم يكن بمعزل عن الأفكار الأوروبية التي تروج في الساحة المتوسطة آنذاك.

لعل من أشهر منجزات الباي محمد الكبير بأم عسكر هو تأسيسه للمدرسة المحمدية والتي قال عنها كاتبه ابن سحنون الراشدي: "أن العلم كان يتفجر من جوانبها" لكنه لم يقل لنا أي أنواع العلوم كانت تُدرس بالمدرسة المحمدية، والظاهر أنها لم تكن تختلف عن باقي مدارس الوطن من حيث البرامج العلمية، وقد أوكل مهمة ادارتها الفقيه محمد بن الجيلالي، (الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، 2013، صفحة 145)، وأشاد أبو راس الناصر بمدرستين ضلعتين في علوم ذلك العصر وهما المدرسة القشاشية بالجزائر العاصمة، والمدرسة المحمدية بعاصمة البايليك الغربي وهذا في اطار التعليم العالي.

ويلاحظ مارسيا لايميرت أن بايليك الغرب صار غنيا زمن الباي محمد الكبير وهو ما ظهر من خلال عمليات التصدير، فضلا عن الدنوش التي تصل إلى دار السلطان، ويخلص إلى أن الربع الأخير من القرن 18 يمكن اعتباره نواة لهضة جزائرية لكنه يتأسف لتوقفها بسبب الثورات الداخلية وحروب الجزائر مع أعدائها في البحر المتوسط التي أعادت الفوضى إلى البلاد.

لكنه في الأخير يطرح تساؤلا في غاية الأهمية فحواه هل كانت الحضارة الاسلامية المتواضعة بشمال افريقيا قادرة على النهوض باعتمادها على نفسها؟ (Emirit, 1948).

2- الاسهامات الثقافية للقلعة الراشدية :

أشار العلامة ابن خلدون في كتابه المشهور "ديوان المبتدأ" إلى أن قلعة (بالحميسي، 1981) هوارة تقع في منطقة جبلية تطل على البطحاء، وبالقرب منها تقع مصراتة، ويعرف رؤساؤهم من بني اسحاق، ثم آل أمرها إلى سلطة بني زيان (بن خلدون، 2000)، وإن كانت القلعة قد شهدت اضطرابات سياسية وعسكرية في مستهل العصر الحديث حينما غدت ميدانا خصب للتنافس بين بني عثمان من جهة، وبين بني زيان والاسبان من جهة أخرى، وقد قُتل بها أحد الاخوة بربروس (اسحاق) فإن ذلك لم يُفقد قيمتها العلمية والثقافية، حيث شهدت خلال العهد العثماني نشاطا ثقافيا معتبرا وتطورا عمرانيا متميزا حين اتخذ منها العثمانيون حصنا

منيعا، وشيد بها الباي مصطفى بوشلاغم سنة 1734 مسجدا للصلاة والتعليم، ولذا تبوأ مكانة منيفة بالغرب الجزائري بين الحواضر العلمية، وهذا نظير ما تخرج منها من الشيوخ والفقهاء والعلماء الذين برعوا في المعقول، والمنقول، أمثال الشيخ بن عمران، والشيخ عبد القادر بن يسعد البرذعي الذي عاش خلال القرن العاشر الهجري وهو تلميذ الشيخ امحمد بن علي المجاجي، وكان في حوزته مكتبة تعج بنفائس المخطوطات، والفقهاء أبو عبد الله بن علي الصباغ قاضي القلعة الذي ترجم لكوكبة من علماء القلعة خلال القرن التاسع الهجري أي الخامس عشر الميلادي، في كتابه " بستان الأزهار في مناقب زمام الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي "(البوعبدلي، 2013)، ولعل من أشهر الأسر العلمية التي بزغ نجمها بالقلعة الراشدية أسرة الخروبي التي تولت خطة القضاء في العهد العثماني، وكذلك في عهد دولة الأمير عبد القادر نذكر منهم محمد بن الجيلالي الخروبي الذي كان عضوا في مجلس شورى الأمير، فضلا عن محمد الخروبي القلعي الذي عين خليفة مجانة والبيبان علماء القلعة الراشدية المشهورين سواء المتقدمين منهم أو المتأخرين وتأليفهم في مختلف فروع المعرفة السائدة آنذاك (المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران ومخازنها الأسود، 2009).

3- دور علماء غريس في الحركة العلمية والتعليمية:

منطقة غريس موطننا لكثير من القبائل البربرية، والعربية المعتزة بأنسابها والمحافظة على عاداتها، وتقاليدها، والمتنافسة في مضمار التأديب والتعليم الساعية إلى المجد والشهرة، وقد شكلت المنطقة عامل جذب واستقرار للسكان على مر العصور لما تتوفر عليه من امكانيات في مقدمتها خصوبة التربة، ووفرة المياه، واعتدال المناخ، فضلا عن سعي سلطة بني زيان إلى تعزيز نفوذ قبيلة الحشم بعين المكان باعتبارها سدا منيعا في وجه قبائل بني توجين التي ساءت علاقاتها مع السلطة الزيانية آنذاك. (الزهار، صفحة 159).

نفس الأمير عبد القادر في مذكراته التي كتبها في سجن أمبواز أن يكون العلم الذي تلقاه عن والده وبعض علماء عصره والذين توارثوه بدورهم كابرا عن كابر، أن يكون من خارج مدارس وزوايا أم عسكري، بل إن علماء غريس كانت لهم اليد الطولى في علوم العصر (علوم الدين الاسلامي، وعلوم اللغة العربية)، وفي هذا الصدد يشير: "... ولا يذهب الوهم بمن وقف على هذه الأسانيد فيعتقد أننا لم نأخذ العلم إلا من بعيد، بل وطننا غريس كان محط علم، ومحل تعلم وتعليم "(الأمير، 2010)

كما تفيد المصادر إلى أن وطن غريس كان به زهاء 100 قرية، وأشار الأمير عبد القادر إلى مساهمة بعض تلك القرى العلمية الغريسية في حركة التعليم والتأليف والتي اندثرت مثل قرية أولاد علي بن صناج الواقعة جنوب مقر عاصمة البايليك.

نوه القاضي الفقيه بلهاشي بن بكار في كتابه مجموع الحسب والنسب والفضائل والتاريخ والادب بالمكانة التي وصلتها منطقة غريس إذ كانت تعرف حركة علمية دؤوبة منذ القرن 10 هـ إلى 12 هـ، حيث كثرت الرحلة لطلب العلم، والانقطاع له فقد اشتهر سهل غريس بأنه، موطن العلماء والصلحاء والفقهاء وفي هذا الصدد يقول: "وما يعلم جنود ربك إلا هو، حتى قيل كل دومة في غريس بوالي لله تعالى"، ولقد أحصى الكاتب عشر زوايا التي كانت تنشط بإقليم غريس خلال العهد العثماني، لكن ما يلاحظ على تلك المؤسسات على تعددها واختلاف تسمياتها فإنها كانت تقدم تعليما يكاد يكون متشابهة تقريبا، لكن الفرق بين زاوية وأخرى يكمن في سمعة الشيخ الذي يدرس بها، أو يشرف عليها فضلا عن قدرتها على توفير المأكل والمأوى لطلبتها والمحتمين بها من عامة الناس.

لعل معهد القيطنة الذي هو امتداد لزاوية غريس حيث كان يقطن أجداد الأمير عبد القادر يعد نموذجا لزوايا الاقليم الراشدي، فقد ذكر الحافظ أبو راس الناصر أنه زار المعد المذكور والتقى أبو المكارم الشيخ عبد القادر المشرفي، حيث وجده عاكفا على تدريس مختصر الشيخ خليل، وفي ذات الوقت تعرف على الشيخ مصطفى بن المختار مؤسس الزاوية.

كان معهد القيطنة يجمع بين تحفيظ القرآن الكريم، ودراسة الفقه المالكي إذ كان يضم سبعة مجالس للتعليم كما أن عدد طلبة القرآن يتراوح بها ما بين 500 إلى 600. والظاهر أن القيطنة قد استمدت شهرتها من سمعة الشيوخ الذين تداولوا على التدريس بها، فضلا عن العلوم التي كانت تلقن بها وقد أتى على ذكرها أحد طلبة الزاوية حينما كان يرثي شيخها محي الدين بن مصطفى إذ يقول :

ترى كتب ابن حاجب وخليلينا والفية بن مالك مع غنية

وسعد وسلم وجمع الجوامع وتفسير وما يتلى من كتاب وسنة

وقد زاد في سمعة الزاوية وفود الطلبة الذين كانوا يؤمنونها من مختلف البقاع ليشهدوا منافع لهم، فقد كان بها طلبة من اقليم شنقيط الموريتاني، واطليم سوس ومراكش المغربيان، بل من تونس والاسكندرية(الأمير، مذكرات، صفحة 48) ترى ما الذي دفع أولئك الطلبة على تجشم عناء السفر وقطع كل تلك المسافات من أجل الاستقرار بزاوية القيطنة؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تكمن في علاقات مؤسسي الزاوية الأوائل الذين كانوا في تواصل دائم مع الاقطار العربية عن طريق الرحلات إلى الحج، فضلا عن مشيخة الطريقة القادرية التي توارثها شيوخ الزاوية كابرا عن كابر.(خالدي، 2017).

وفي مايلي جرد لأهم الزوايا التي كانت تنشط بنطاق غريس خلال الفترة الحديثة وهذا حسي ما ذكره قاضي أم عسكر وغيره من الكتاب :

- زاوية سيدي محمد بن يحيى السليمانى
- زاوية سيدي عبد الله بن عبد الرزاق الادريسي.
- زاوية الشيخ محمد المشرفي شيخ مصطفى الرماصي.
- زاوية سيدي عبد القادر بن المختار الادريسي.
- زاوية سيدي عبد الرحمن المحمودي الادريسي.
- زاوية سيدي الخضير المهاجي الادريسي.
- زاوية سيدي محمد الاعرج السليمانى.
- زاوية سيدي محي الدين بن مصطفى الادريسي.
- زاوية سيدي سحنون بن احمد الحسني وكان برنامجه يقوم على تدريس المدونة.(بلهاشمي، 1961)
- زاوية حفيد سيدي الهاشمي بن علي شنتوف(بن عبدالحكم، 1953).

يمكن القول أن التعليم بجميع مستوياته أواخر العهد العثماني كان منتشرًا بعاصمة البايليك الغربي أم عسكر وهذا ما كانت توفره زوايا غريس القائمة على جهود الاشخاص، ومعاهد القلعة الراشدية، فضلا عن المدرسة المحمدية التي أنشأتها السلطة الحاكمة لكنه تعليما لم يكن ليخرج عن علوم الدين والعربية.

النتائج:

بعد هذه المعالجة السريعة نخلص إلى جملة من النتائج تعكس برأينا منحنى التحولات الثقافية التي عرفتها أم عسكر خلال أواخر العهد العثماني واستمر مفعولها حتى بعد نهاية العهد العثماني.

- أم عسكر خلال أواخر العهد العثماني كانت حاضرة علمية وقبلة الطلبة والمريدين تُشد إليها الرجال إذ توسعت مجالسها العلمية وكثرت زواياها فهذا الحافظ أبو رأس الناصر يتحدث عن سبعمائة وثمانين طالبا كانوا يتزاحمون على مجلسه، وتلك زاوية القيطنة كان يؤمها الطلبة من بلاد شنقيط، وسوس، ومراكش، بل من افريقية (تونس) والاسكندرية.
- احتكاك علماء الراشدية بعلماء المشرق والمغرب من خلال رحلات الحج، والرحلة العلمية سمح لهم بالاطلاع عن كثر عن أوضاع العالم العربي والاسلامي وبل ومعرفة ما يدور في الضفة الشمالية للمتوسط (أروبا)، ولذا لم يكن علماء أم عسكر بمعزل عن قضايا الساعة، فقد انعكست تلك الأحداث في مؤلفاتهم، أو من خلال مواقفهم من تطور الأوضاع التي عاشتها الجزائر لاحقا، فقد ألفينا الشيخ محي الدين ملما بما يدور في أروبا وبالتحديد فرنسا التي غزت الجزائر سنة 1830، حيث نقل تشرشل عن الامير عبد القادر عن والده محي الدين تقدير قوة الفرنسيين حق قدرها ولذا كانت استراتيجية واضحة في المواجهة.
- تفيد الدلائل أن الاربعين سنة الاخيرة من الحكم العثماني لقد بدأت تعرف نوع من اليقظة العلمية والتي تمثلت في بناء المدارس ووقف الأوقاف عليها والعناية بالجوامع والمساجد واستضافة العلماء وكرمهم، وهذا ما جسده أعمال البايات المتأخرين (الباي محمد الكبير، وصالح باي، والحاج أحمد باي) فضلا عن نشاطات بعض الدايات منهم مصطفى باشا، والداي حسين، في ذات الوقت ظهرت مجموعة من المؤلفات معظم كتابها من بايليك الغرب، كما أن مكتبة الشيخ محي الدين احتوت بعض الكتب الفلسفية والفكرية استغلها الامير عبد القادر في المطالعة.
- إن المراحل التي مرت بها أم عسكر، والتطورات التي شهدتها خلال تاريخها منذ العصر الوسيط مرورا بالفترة الحديثة، وصولا إلى الفترة المعاصرة، فالأحداث التي عاشتها، والحراك العلمي والثقافي الذي شهدته، والتجربة التي اكتسبتها في ظل حكم الباي محمد الكبير كل هذه المعطيات أهلتها لكي تمثل دور الريادة في المقاومة المسلحة 1830 / 1847، لكن القرن التاسع عشر كان قرن الاستعمار الاوروبي بامتياز والقوة الفرنسية لم تكن تخطئها العين، فهل كان بالإمكان أن تقدم أم عسكر أفضل مما قدمت؟

قائمة مصادر ومراجع البحث:

- 1 - بن عودة المزاربي، طلوع سعد السعود في أخبار وهران ومخازنها الاسود، ج1، تحق: يحيى بوعزيز، ط خ، دار البصائر حسين داي الجزائر، 2009م.
- 2 - ج، أو، هابنسترايت، رحلة العالم الالمانى إلى الجزائر، وتونس، وطرابلس 1145 هـ / 1732 م، تر ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الاسلامي، تونس، 2008.
- 3 - بلهاشمي بن بكار، كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والادب في أربعة كتب، د ط، مطبعة ابن خلدون تلمسان، 1381 هـ / 1961م.
- 4 - ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني 1792 / 1830، ط 2، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985.

- 5 - أحمد الشريف زهار، *مذكرات*، ط 2، تحق أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1980 .
- 6 - أبو القاسم سعد الله، *بحاث وآراء في تاريخ الجزائر ج 1*، ط خ، دار البصائر الجزائر 2007 .
- 7 - أحمد بن سحنون الراشدي، *الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني*، ط 1، تحق المهدي البوعبدلي، جم، اع عبد الرحمن دويب، عالم المعرفة الجزائر، 2013 .
- 8 - أبو راس الناصر، *فتح الاله ومنتها في التحدث بفضل ربي ونعمته*، تحق محمد بن عبد الكريم، د ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1990 .
- 9 - ناصر الدين سعيدوني، *عصر الأمير عبد القادر*، د ط، دار البصائر الجزائر 2012.
- 10 - أبو القاسم سعد الله، *تاريخ الجزائر الثقافي ج 2*، ط 6، دار البصائر الجزائر 2000.
- 11 - أبو حامد المشرفي، *بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبان كقبائل بني عامر*، تحق محمد بن عبد الكريم، ط 1، دار الوعي، الجزائر .
- 12 - ناصر الدين سعيدوني، *تاريخ الجزائر في العهد العثماني*، د ط دار البصائر، الجزائر 2013 .
- 13 - أحمد بن سحنون الراشدي، *ابتسام الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني*، د ط دار البصائر، الجزائر 2013.
- 14 - مولاي بالحميسي، *الجزائر من خلال رحلات مغربية في العهد العثماني*، ط 2، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1981.
- 15 - عبد الرحمن ابن خلدون، *ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ج 6*، د ط، دار الفكر، بيروت لبنان، 1421 هـ، 2000 م.
- 16 - المهدي البوعبدلي، *تاريخ المدن*، ط 1، جم، اع عبد الرحمن دويب، عالم المعرفة الجزائر، 2016.
- 17 - الأمير عبد القادر، *مذكرات*، ط 7، شركة دار الأمة، الجزائر 2010.
- 18 - بلعربي خالدي، "الشيخ محي الدين من مشيخة الطريقة القادرية إلى زعامة المقاومة الوطنية المسلحة 1776/1833]" *مجلة أفاق العلوم المجلد 2، العدد 6، جامعة الجلفة، 2017.*
- 19 - الجيلالي بن عبد الحكم، *المرأة الجليلة في ضبط ما تفرق من أولاد سيدي يحيى بن صفية وفي التعريف بمشاهير العلماء ورجال المعاهد الصوفية*، ط 1، مطبعة ابن خلدون، تلمسان الجزائر، 1953.

20- *M.Emir, les aventures de thédenat esclave et ministre d'un bey d'Afrique XVIII, siècle revue africaine, vol 92, année 1948.*